محاضرةٌ علميّة

ضمنُ دروس العقيدة والتَّوحيد

الأصُولُ الجامِعة لِفهمِ أدلّة توحِيدِ العبادة

لمعالي الشَّيخ

صالح بن عبد العزيزِ بن محمّدِ آلِ الشَّيخ

اعتنى بها وفرَّغها

عبدالله بن مُسفرِ بن عبدالله الشَّمراني

(محاضرة علمية)

الأصول الجامعة

لفهم أدلة

توحيد العبادة

لمعالي الشيخ

صالح بن عبدالعزيز بن العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ

اعتنى بها وفرغها

عبدالله بن مسفر بن عبدالله الشمراني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، هو الملك الحق المبين، وأشهد أن محمدًا عبدُ الله ورسولُه وصفيُّه وخليلُه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا. أمَّا بعد:

فأسأل الله جل وعلا أن يزيدني وإياكم علمًا، اللهم زدنا علمًا نافعًا.

ثم إني، في فاتحة هذه الدورة الشتوية التي تُقام في رحاب المسجد الحرام لهذا العام ألفٍ وأربعمائةٍ وسبعةٍ وأربعين من الهجرة، في شهر رجب، لا أملك إلا أن أذكر الله جل وعلا وأشكره على أن هيَّأ لي ولكم، وللعاملين على إنفاذ هذه الدورة والدروس. أسأله سبحانه لنا جميعًا التوفيق والسداد، وأشكره جل وعلا أن هيَّأ لنا من أمرنا رشدًا، وأسأله المزيد من فضله، وأن ينفعنا وإياكم بهذه المجالس العلمية التي تحفُّها الملائكة، ويذكرها الله جل جلاله.

أيها الإخوة الكرام، لا شك أن طالب العلم الذي يقرأ القرآن ويعظِّمه ويجلُّه، ويجعل له من حياته ولسانه وسمعه وبصره نصيبًا، لا شك أنه يجد أن أعظم ما في القرآن هو حقُّ الله جل وعلا بتوحيده سبحانه. قال تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ**﴾ [محمد: ١٩]. فحقُّ الله جل وعلا الذي قامت عليه السماوات والأرض، وحقُّ الله جل وعلا الذي خلق الجن والإنس لأجله، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ يعني: إلا لِيُوَحِّدوني بعبادته. وحقُّ الله جل وعلا في القرآن بطاعته وامتثال ما أوجب وفرض وقضى من توحيده جل وعلا، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**﴾ [البقرة: ٢١]، وقال: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ**﴾ [الإسراء: ٢٣].

فتوحيد الله جل وعلا بأفعال الناس، هذا هو حق الله جل وعلا: أن لا يُعبد إلا الله، وأن لا يتوجه القلب بالدعاء، ولا بالرجاء، ولا بالاستغاثة، ولا بطلب النفع، ولا بطلب دفع الضرر، ولا بأنواع المطلوبات في الدنيا والآخرة، إلا إلى الله جل وعلا وحده. فليس لأحد حقٌّ في الدعاء، والدعاء هو طلب جلب الخير المطلق ودفع الضر المطلق، إلا الله جل وعلا.

ولا يستحق هذا الطلب في جلب الخير ودفع الضر: لا نبيٌّ مُرسَل، ولا ملكٌ مُقَرَّب، ولا صالحٌ من عباد الله، ولا وليٌّ، ولا عالمٌ، ولا ذو شأن؛ لا يستحق أحدٌ الدعاء والرغبة في دفع الضر وتحقيق المطلوب إلا الله جل وعلا.

لذلك كان أهمُّ العلوم على الإطلاق هو العلم بما جاءت به المرسلون، والعلم فيما جاءت به المرسلون جميعًا من أولهم إلى آخرهم. ومن المتقرر المعروف الظاهر البيِّن في القرآن المتكرر أن المرسلين جميعًا إنما جاؤوا بتحقيق كلمة: لا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف: ٥٩]. وهذا هو الذي سمَّاه العلماء **توحيد العبادة**، يعني: توحيد الله جل وعلا بأفعال العباد؛ أن لا يُعبد إلا الله بأفعالك، أن لا تدعو إلا الله، وألا ترجو إلا الله رجاء العبادة، وألا تخاف خوف السِّر إلا من الله جل وعلا، وألا تعتقد أن أحدًا يملك لك على الحقيقة ضرًّا ولا نفعًا إلا الله جل وعلا وحده.

والتوحيد هو معنى كلمة **أحد** في قوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: ١]، يعني: هو سبحانه واحدٌ في ربوبيته، واحدٌ في ألوهيته، واحدٌ في أسمائه وصفاته. فهو أحدٌ مستحقٌّ للربوبية وحده، يعني: أن يكون هو الخالق وحده، وهو كذلك جل جلاله، وهذا من الظاهر البيِّن عند ذوي الفِطَر السليمة. وهو جل وعلا أحدٌ في ألوهيته، يعني: هو الواحد المستحق لأن يُعبد بحق دون ما سواه. وهو الأحد في أسمائه وصفاته، ليس له جل جلاله شبيهٌ في صفاته، ولا مثيلٌ في أسمائه سبحانه وتعالى، ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١].

لذلك نجد أن علم التوحيد، توحيد الإلهية، توحيد العبادة، الذي جاءت به الرسل بالأصالة، والعلوم جميعًا تبعٌ له، وهذا القرآن مملوءٌ منه بأنواعٍ من التقرير والوصف.

هذه المحاضرة معنونة بـ: **الأصول الجامعة لفهم أدلة توحيد العبادة**، أو **الأصول الجامعة لفهم أدلة توحيد الألوهية**. ومعلوم أننا، أهلَ العلم، في كتب التوحيد، قد بيَّنوا لنا التوحيد ومعناه، وبيَّنوا لنا ضدَّه، وهو الشرك: الشرك الأكبر والأصغر، ووسائل الشرك، وبيَّنوا لنا أدلة

هذا وهذا، وبيَّنوا لنا تفاصيل ذلك. لكن لما كان هذا العلم، كما ترون، علمًا كثيرًا مفصَّلًا في كتب أهل العلم، ولا سيما مع ازدياد الحاجة إليه في القرون المتأخرة، كان من اللوازم لطالب العلم أن يفهم أصولًا يمكنه معها أن يقيم الأدلة، ويحسن الاستدلال.

ومعلوم أن الأدلة كثيرة في القرآن، لكن قوة الاستدلال بها وفهم الاستدلال بها يحتاج إلى فتح الفهم للأصول. ومعلوم أن كلَّ علم قد وُضعت له أصول تسهِّل فهمه؛ فالتفسير له أصول التفسير لتسهيل فهمه، والحديث له مصطلح الحديث لتمييز الحديث الصحيح من غيره، والفقه له أصول الفقه تمكِّنك من الاستدلال على المسائل الفقهية، وللفقه قواعد فقهية، وللغة العربية أصول في النحو، وأصول في البلاغة، إلى آخره.

والتوحيد، فيما عاينتُ ونظرتُ، الكل يقرأ فيه، والكل ينظر في كتبه، سواء في الكتب الأساسية، أو في كتب التفاسير، أو في كتب الحديث، أو في كتب الردود على المخالفين في التوحيد: المخالفين في أصوله، أو المخالفين في فروعه، أو المخالفين بالوقوع في الشرك، إما الشرك الأكبر أو وسائله. لكن جمع الأصول التي يكون معها فهم الأدلة، وترتيب الأدلة في الذهن، حتى تكون حجتك قوية، لا بد أن يكون هناك أصول تُسهِّل لك هذا الفهم، وتقوِّي لك الحجة؛ لأن الله جل وعلا جعل الحجة له، قال تعالى: ﴿**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ**﴾ [الأنعام: ١٤٩]، فلو شاء لهداكم أجمعين. فحجته سبحانه وتعالى بكتابه، في كل ما جاء فيه قدرًا وشرعًا، توحيدًا وشريعةً، خبرًا وأمرًا، لله سبحانه وتعالى الحجة فيه.

فرأيت أن من الحاجة تبسيط هذا الموضوع، الذي لا يوجد مجموعًا على أصوله كأصول العلوم الأخرى في كتاب مستقل، وهو حقيقٌ بذلك؛ ليتيسر لطلاب العلم النظر في هذا الأمر المهم. ووجدت أنه من الضروري أن يكون هناك تبسيط وتقريب لأصول جامعة لفهم أدلة توحيد العبادة، وفهم الاستدلال لتوحيد العبادة بالآيات القرآنية، وبالأحاديث النبوية الشريفة.

وبذلك، فهذه الكلمة نعدُّها مدخلًا، وليس تفصيلًا لهذا العلم، وتأسيسًا لفهم هذه الأصول.

إذا تبين ذلك، فإننا نقول: إن هذا العلم، والعلم بأصول الاستدلال لمسائل التوحيد، مهمٌّ جدًا. وأسباب أهميته:

أولًا: أن التوحيد، وأدلة توحيد العبادة، هي أعظم ما في القرآن من الأدلة، ابتداءً من سورة الفاتحة إلى سورة الإخلاص والمعوذتين. فأعظم آية في القرآن هي آية الكرسي، التي تفتتح بقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وسورة الفاتحة هي أم القرآن، والله جل وعلا فيها قال: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٥]، يعني: توحيدًا لك في إلهيتك وربوبيتك. وقال جل وعلا بعدها: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، وغير المغضوب عليهم ولا الضالين؛ يعني: من أهل الإسلام والإيمان من الرسل السابقين وأتباع الرسل عليهم صلوات الله وسلامه.

الأمر الثاني: من أسباب أهمية هذا الموضوع أن الالتباس فيه يقع كثيرًا، وأكثر ما يقع الالتباس بتسويل الشيطان، أو أولياء الشيطان، يكون في أهم الأمور، وهو توحيد الله جل وعلا. لذلك، لما كان الالتباس فيه يقع، والتشوش والتشويش في فهم آياته يقع، كان من الضروري أن نتذاكر به، وأن يكون له علمٌ خاصٌّ يُدرَّس ويُحفَظ، وتكون أصول الاستدلال له حاضرة، بينة، واضحة، جلية لطلبة العلم.

أيضًا من أهميته: أن يكون عليك الأمر أسهل في إقامة الحجة؛ لأن الحجة تُقام على الخلق بالتوحيد، وبطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا أهم ما في الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. فشهادة أن لا إله إلا الله معناها: أُخبر وأشهد وأعتقد بأنه لا أحد يستحق العبادة إلا الله جل وعلا وحده، لا ملكٌ مقرَّب، ولا نبيٌّ مرسل، ولا وليٌّ، ولا صالح، ولا أحد من خلق الله جل وعلا من الملائكة أو الجن أو الإنس. وأشهد أن محمدًا

رسولُ الله يعني: أُقِرُّ وأعتقد أن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو رسولٌ من الله حقًّا، أرسله الله جل وعلا، وأوحى له بهذا القرآن العظيم، وبيَّن له المطالب العظيمة التي أعظمها التوحيد، ثم التعبد بالشريعة المحمدية الإسلامية.

إذا كان الأمر كذلك، فإن المخالفين يكثرون في كل زمان، والواجب إقامة الحجة عليهم. وإقامة الحجة تارةً تكون بتلاوة القرآن، والقرآن وحده حجة، وقد تكون كافية في حق بعضهم، وقد لا تكون كافية في حق بعضهم. لكن الله جل وعلا قال لنا في سورة الأنعام: ﴿**لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ**﴾ [الأنعام: ١٩]، يعني: لأنذركم به أيها الناس، ومن بلغه هذا القرآن؛ لأنه بيِّن واضح جلي، لا لبس في أدلة التوحيد، كما سيأتي بيانه.

الأمر الأخير من أهمية هذا الموضوع: أننا نرى أن هذا الزمن، الذي هو زمن العلم بمفهومه الكبير، وزمن يقظة العقول بالبعد عن الخرافة، وزمن فهم الناس لما هو قريب من تخليص الإنسان من عبوديته للإنسان، ومن تبعيته الكاملة لإنسان مثله؛ نجد أن هذا الزمن قد زاد فيه الخلل، وزاد فيه الغلط، وزادت فيه عبودية الإنسان للإنسان، وزادت فيه الخرافة لأشياء لا يمكن للعقل أن يقبلها. فصار الإنسان مضروبًا في عقله، مؤثَّرًا عليه، بأن يأتي أشياء لا علاقة لها بما هو واجب عقلًا عليه.

فنجد أنه أُحييت المعابد من جديد، وأُحييت الأضرحة من جديد، وعُظِّمت، وعُمِل لها الاحتفالات، وعُمِل لها الكثير من الدعايات؛ ليضل الناس بغير علم ولا هدى من الله. والجواب عليهم، والردود عليهم، يجب أن تحملوها أنتم، يا طلبة العلم. وهذا أعظم من أن يُوعَظ بمواعظ، وبرقائق، وبأذكار، وأعظم من أن يُوعظ في عبادات ونحو ذلك؛ فالكل عظيم، ولكن هذا أعظم، لأنه التوحيد الذي هو حق الله جل وعلا على العبيد.

ولذلك، فكيف تقيم الحجة؟ وكيف تبين المحجة؟ وكيف تبين أن ما يفعله هؤلاء من اعتقاد النفع والضر بالأولياء المقبورين، واعتقادهم في الصالحين أنهم يجيبون من دعاهم، وأنهم يبلغون من أتاهم زلفى إلى الله جل وعلا، وأنهم يشفعون في الدنيا لمن أتاهم في قبورهم، ونحو ذلك

من الخرافات المناقضة لأصل الدين، وللقرآن والسنة؟ يجب أن تكون أولًا عالمًا بالأدلة من القرآن، تحفظها، تحفظ أدلة التوحيد، ثم تفهم كيفية الاستدلال بالأدلة على مسائل التوحيد.

وهذه من أعظم المهمات: أن تكون مستيقنًا بما تحمله من الدعوة. فالدعوة إلى الله جل وعلا شرفٌ عظيم، وأن تحمل هذا شرفٌ عظيم. والدعوة متجزئة؛ ليست أن تكون عالمًا كاملًا حتى تكون داعية، بل تدعو إلى الله بما علمت: من علم التوحيد دعا إليه، ومن علم السنة دعا إليها، ومن علم القرآن دعا إليه، ومن علم القرآن علَّمه، **(وخيركم من تعلم القرآن وعلَّمه)** [أخرجه البخاري: ٥٠٢٧]، وهكذا.

فإذًا، لا بد من وجود الحجة للتوحيد بفهم أدلته، ولا يكفي أن تقول: الدليل كذا، والدليل كذا، بل لا بد أن تشارك أهل العلم في فهم الدليل حتى توضحه للناس، وللواقعين في كثير من الضلالات.

هذه أوجه لأهمية هذا الموضوع. وكما ذكرت لكم، فالمحاضرة مدخل، يعني: ليست علمًا كاملًا، لكنها مدخل، وسيتبعها إن شاء الله تعالى تفصيل لهذا الموضوع المهم في دروس ومؤلفات، إن شاء الله، مني ومن غيري من أهل العلم؛ لكي يظل هذا العلم محفوظًا، ويفهم أهل العلم الأدلة، وكلام العلماء فيها، ويفهمون الحجاج والردود على المخالفين والواقعين في الشرك، والقبورية، والغلو في الأولياء والأنبياء والصالحين.

المدخل الأول: أن طالب علم توحيد الإلهية، لكي يفهمه، لا بد أن يفهم المفردات المستعملة فيه فهمًا قويًّا، يميز المفردات عن غيرها.

أول هذه المفردات: **التوحيد**. كلمة التوحيد، كما ذكرت لكم، في القرآن من معنى **أحد**، وفي السنة روى البخاري في الصحيح وغيره، وجعل البخاري في أول كتابه **كتاب التوحيد** من صحيحه، وهو آخر كتاب في الصحيح، وأول حديث فيه حديث معاذ: (**إنك تأتي قومًا أهلَ كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحِّدوا الله**) [أخرجه البخاري: ١٤٩٦]، وفي رواية: (**أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله**) [أخرجه مسلم: ١٩].
والبخاري أخذ لفظة **يُوَحِّدوا الله** فجعل عليها باب أول كتاب، سمَّاه **كتاب التوحيد**.

والنبي صلى الله عليه وسلم لما كان في الحج قال الصحابة: (**أهلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوحيد**) [أخرجه مسلم: ١٢١٨]. يعني أن كلمة التوحيد موجودة في القرآن، في سورة الإخلاص: **أحد**، وموجودة في السنة في أكثر من حديث.

ما معنى التوحيد؟ معنى أن تجعل الله جل وعلا واحدًا، واحدًا في ألوهيته، يعني: واحدًا في استحقاقه للعبادة.

العبادة ما هي؟ العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. يعني: أن كل قول أو فعل يحبه الله جل وعلا ويرضاه، أو اعتقاد يحبه الله ويرضاه، فإنه عبادة.

ولذلك، فقد عرف العلماء العبادة بتعريفات مختلفة، أحسنها وأمثلها وأضبطها تعريفان:

التعريف الأول: تعريف أصولي، وهي أن العبادة: ما أُمر به من غير اطرادٍ عرفي، ولا اقتضاءٍ عقلي. يعني: ما أُمر به النبي صلى الله عليه وسلم، أو أمر به أي رسول، من غير ما تضطرد به عادة الناس البحتة، ومن غير ما يقتضيه عقل الناس؛ لأن أصل العبادة خارجٌ عن اطراد العرف، وخارج عن اقتضاء العقل.

والتعريف الثاني الجامع: ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في أول كتابه **العبودية**، حيث قال: **العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة**. فأدخل ثلاثة أشياء: القول، والعمل، وما يكون في القلب من اعتقادات وأعمال للقلوب، وهذه كلها عبادة. فالتوكل عملُ القلب، وعبادةُ القلب ليست قولًا ولا فعلًا ظاهرًا، إنما هي أمرٌ قلبي، واليقين، والاعتقاد، والإخلاص، والتوجه، والرجاء، والخوف، والرغب، والرهب، هذه كلها عبادات قلبية.

اللفظ الثالث: وهو لفظ **الدعاء**. و(**الدعاء هو العبادة**) [أخرجه أبو داود: ١٤٧٩]، مثل ما جاء في القرآن، قال الله جل وعلا في سورة مريم في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا**﴾ [مريم: ٤٨]. ثم قال جل وعلا بعدها: ﴿**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ [مريم: ٤٩]، فدلَّ ذلك على أن الدعاء هو العبادة.

والدعاء ما معناه؟ معناه: الطلب. وهذه ألفاظ مهمة في علم توحيد الإلهية. فالطلب: أي طلبٍ من أحد يقال له: دعاء. فإذا طلبت شيئًا ممن يقدر عليه، فتكون دعوتَه إلى وليمة، ودعوته للحضور، وقلت: يا فلان تعال؛ فهذا شيء يقدر عليه، وتأتي إلى طبيب فيما يقدر عليه وتطلب منه، فهذا نوع من أنواع الدعاء، لكن ليس هو الدعاء المقصود في توحيد الإلهية. فالدعاء المقصود في توحيد الإلهية هو طلبٌ مقترن برغبة القلب وخضوعه، في جلب النفع ودفع الضر. فإذا خضع القلب، وطلب نفعًا خفيًّا، وطلب دفع ضرٍّ خفي، فهذا يسمى الدعاء. فدعاء الذين يدعون الغائبين من الموتى أو الأولياء أو نحو ذلك، ويطلبون منهم وهم غائبون، هذا يسمى دعاءً، وهو طلب لشيء ما.

ومن الدعاء: الاستغاثة، والإعانة، وطلب المغفرة، وطلب جلب الخير، وطلب النجاة من النار، وطلب الجنة، ونحو ذلك من أنواع طلب الإنسان في الدنيا والآخرة.

ثم نأتي إلى اللفظ الأخير، وهو: الشرك. وهو ضد التوحيد. ولفظ الشرك جاء في القرآن كثيرًا، وأكثر الألفاظ التي في هذا الموضوع يأتي بلفظ الشرك. قال جل وعلا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**﴾ [النساء: ٤٨]، وقال جل وعلا: ﴿**أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾ [الأعراف: ١٩١]، وقال جل وعلا: ﴿**وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ**﴾ [سبأ: ٢٢]. ولفظ الشرك كثير جدًا.

والشرك يعني: أن يكون هناك اشتراك في صرف العبادة لله ولغيره، فهذا يسمى تشريكًا. ويماثله **النِّدّ**، أن تجعل لله نِدًّا، كما قال جل وعلا: ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا**﴾ [البقرة: ٢٢]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم، لما سئل: (**أيُّ الذنب أعظم؟**) قال: (**أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك**) [أخرجه البخاري: ٤٤٧٧]. يعني: نِدًّا، أي شريكًا في التوجه بالعبادة. والنِّدُّ يعني المثيل والنظير، ويكون مع المساواة ومع غيرها.

والشرك منه ما هو أكبر مخرج من الملة، وهو دعوة غير الله معه؛ يعني: أن تدعو غير الله، أو تستغيث بغير الله، أو تطلب من غير الله من الأموات جلب نفع أو دفع ضر، أو تطلب من الجن الذين لا تراهم ولا تعرفهم أن يدفعوا ضرًّا أو يجلبوا نفعًا، أو تطلب من الملائكة، أو تطلب من غائبين تظن أن لهم الكرامة بأن يسمعوا قولك وأن يجيبوك؛ فهذا كله داخل في الشرك بالله جل وعلا الذي لا يغفره الله سبحانه وتعالى.

ومن الشرك أيضًا: اتخاذ الوسائط، بأن يجعل هناك واسطة بينه وبين الله جل وعلا. وهذا هو أصل شرك المشركين، كما قال الله جل وعلا في أول سورة الزمر: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ**﴾ [الزمر: ٣]. أي: ما نعبدهم لعلة من العلل إلا ليقربونا إلى الله.

إذا تبين هذا في هذه المفردات، فإننا ندخل إلى صلب الموضوع، وهو: ما هي الأصول التي بفهمها يمكننا فهم الأدلة في التوحيد، ويمكننا بها أن نقيم الحجة على من خالف في التوحيد؟ وهذا أعظم المطالب لطالب العلم. ولو لم تحصل من العلم إلا هذا العلم: بفهم أدلة التوحيد

في القرآن، وكلام المفسرين، وفهم أدلة التوحيد وكلام أهل العلم من أهل التحقيق في التوحيد وفي فهم معانيه؛ لكان ذلك عظيمًا وزلفى لك عند الله جل وعلا في جنات النعيم.

الأصل الأول: أن أدلة التوحيد في القرآن **مُحْكَمَة**. ما معنى محكمة؟ يعني أنها ليست من المتشابه، ولا يدخلها المتشابه. فأدلة التوحيد محكمة، يعني: بيّنة واضحة لا لبس فيها. وهذا أعظم واجب، وهو التوحيد؛ فكيف ينزل الله جل وعلا حجته على عباده مع رسله بأدلة فيها اشتباه؟! هذا لا يكون. فهي لا يدخلها اشتباه، ولا تكون من المشتبه بإجماع أهل العلم؛ لأن هذا أول مطلوب، وهو الذي يفرق بين المسلم وبين غير المسلم. والله جل وعلا قال: ﴿**لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ**﴾ [الأنعام: ١٩]، فمن بلغ، أي: أي واحد، عالم أو غير عالم، ما دام يفهم اللسان العربي ويفهم أدلته، فهو داخل في هذا.

وهي أيضًا محكمة؛ لأنها لا تبديل فيها ولا تغير. فكل الرسل جاءت بهذه الأدلة، والرسل دينهم واحد، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**الأنبياء إخوة لعلات، دينهم واحد، وشرائعهم شتى**) [أخرجه مسلم: ٢٣٦٥]. والدين واحد، يعني: العقيدة واحدة، والتوحيد واحد، كما قال جل وعلا: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦]، وقال جل وعلا: ﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ [فاطر: ٢٤].

فكل الأمم جاءتهم هذه الكلمة الواحدة، وهي أدلة التوحيد: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف: ٥٩]. فلا أحد يستحق العبادة إلا الله، ومن عبد غير الله فهو مشرك، ومن عبد غير الله فهو كافر ظاهرًا. وهذا لا بد أن يكون بينًا واضحًا لا لبس فيه.

وهي أيضًا محكمة بمعنى: لا يدخلها النسخ، لا في أصولها ولا في فروعها. فأدلة توحيد العبادة ليست من المتشابه البتة، وليست مما يدخله النسخ البتة. فإذا استدللت بها اطمأننت أنك تستدل بشيء واضح بيِّن. وإذا لم يكن واضحًا وبيِّنًا، فالخلل من جهتين: إما من عدم وضوحها عند المتلقي، أو من عدم إيضاحك له ما يجب من دليل التوحيد.

لذلك العلماء يقولون في التوحيد: لا بد من إقامة الحجة. وإقامة الحجة ليس معناها إقامة القناعة؛ ليس معنى إقامة الحجة أن يكون المتلقي مقتنعًا، فيقول: أنا ما اقتنعت. ليس من الضروري أن يقتنع، المهم أن تبذل جهدك في أن توصل له أدلة التوحيد بيّنة من القرآن والسنة، وأن تكون مجيدًا للاستدلال بها، فاهمًا كيف تستدل بها. لكن إذا قال: ما اقتنعت، فهذا ليس حجة. ولذلك قال الله جل وعلا في سورة الكهف: ﴿**وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ**﴾ [الكهف: ٥٧]، يعني: أن يفهموه؛ لأن الفهم نوعان: فهم استماع، وفهم انتفاع. فهم يسمعون ويفهمون، لكنهم لم ينتفعوا. وفقه الانتفاع هذا ليس شرطًا، لكن فقه الكلام، وفقه الحجة، هذا ضروري.

الأصل الثاني: أن أدلة توحيد العبادة **حاكمة لا محكومة**؛ حاكمة على غيرها لا محكومة بغيرها. حاكمة، بمعنى: أنها هي التي لها السلطان والبرهان على أي دليل يظنه الناس دليلًا. فبعض الناس جعلوها محكومة بقواعد عقلية، وبعضهم جعلوها محكومة بمنامات، وبعضهم جعلوها محكومة بكرامات، وبعضهم جعلوها محكومة بخصوصيات، وجعلوا الولي في بعض أحواله أفضل من النبي، وجعلوها محكومة بأن هذا يملك، وبأن الله يهب لمن شاء من عباده ما لم يهبه لأنبيائه، وما لا يضر في توحيده. وهذا غلط كبير.

فأدلة التوحيد حاكمة لا محكومة؛ لأن الله جل وعلا قال لنا عن القرآن، وهو الذي في التوحيد من أوله إلى آخره، قال جل وعلا: ﴿**وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [المائدة: ٤٨]. فهو مهيمن على كل الكتب من قبله، ومهيمن على كل حجة، فهو حاكم لا محكوم عليه. وحتى الأدلة العقلية النافعة في الألوهية والربوبية، وفي التوحيد وفي الشرع، مذكورة في القرآن إما بتصريح أو بإشارة. فإذا القاعدة: أن القرآن حاكم في أدلة التوحيد لا محكوم. فإذا جاءك أحد بأدلة التوحيد، ثم يقول لك: والله هو كذا، ويأتيك باستثناءات، ويأتيك بأشياء، تقول: القرآن مهيمن، القرآن حجة، القرآن حاكم لا محكوم عليه.

الأصل الثالث: أن أدلة توحيد العبادة **كلية**. ومعنى كلية: أنها عامة في الأشخاص، وعامة في الأمكنة، وعامة في الأزمنة. فهي عامة في الأشخاص: في الملائكة، وفي الإنس، وفي الجن، وفيمن سبق ومن سيأتي، وفي الصالحين وما دونهم، وفي الأنبياء ومن دونهم، وفي الحواريين ومن دونهم، وفي الرسل ومن دونهم. قال الله جل وعلا لنبيه: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الزمر: ٦٥]. لا يكون هذا منه صلى الله عليه وسلم، لكن الله جل وعلا يبين لنا عظم هذا الأمر.

فأدلة التوحيد وواجب التوحيد كليٌّ مطردٌ في الأشخاص، في الملائكة: جبريل وميكائيل ومن دونهما، وفي الناس: من الرسل والأنبياء ومن دونهم، وفي الصالحين وفي الأولياء. فلا يأتي أحد فيقول: هذا وليٌّ لا يدخل في هذه الآية، أو: هذا له كرامات، أو: هذا قطب من الأقطاب، أو: نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لا يدخل في هذه الآية. نقول: الأدلة، أدلة التوحيد، كلية مضطردة في الأشخاص.

وهي مضطردة كذلك في الأمكنة، وكلية في الأمكنة، وكلية في الأزمنة. ما معنى كلية في الأمكنة؟ يعني: ما يُستثنى مكانٌ عن مكان: قبر النبي صلى الله عليه وسلم، والكعبة، وغيرها من الأمكنة، كلها تحت سلطان أدلة التوحيد. فعمر رضي الله عنه أتى إلى الحجر، ولما أراد أن يستلمه قال: (**والله إني لأعلم أنك حجر، لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك**) [أخرجه البخاري: ١٥٩٧]. هذا من التوحيد؛ جعل أدلة توحيد العبادة مشمولة بهذا المكان، وهو أفضل مكان عند المسلمين.

وكذلك في الأزمنة، فلا نجعل زمانًا مستثنًى من الأزمنة الأخرى. فإذن هذه قاعدة كلية، أو أصل كلي، في أن أدلة توحيد العبادة كلية، يعني: مضطردة في الأشخاص، وفي السماء والأرض، والجن والإنس، وفي الأحوال جميعًا، ومضطردة في الأمكنة وفي الأزمنة.

الأصل الرابع: أن أدلة توحيد العبادة **متنوعة**. فالقرآن، من العجب، قال بعض أهل العلم: القرآن كله في التوحيد. وكيف كان ذلك؟ قالوا: لأنه إما في التوحيد نصًّا وصراحة، أو في

حقوق التوحيد من العبادات، أو في معركة أهل التوحيد مع خصومهم، وهي قصص الأنبياء والمرسلين، أو في جزاء أهل التوحيد في الدنيا بالانتصار على المشركين والغلبة عليهم، وأن الله جل وعلا نصرهم وأعزهم وأكرمهم وأظهرهم على غيرهم، أو جزاء أهل التوحيد في الآخرة بالدخول إلى الجنة، وجزاء مضادِّي التوحيد من أهل الشرك بدخول النار.

فالقرآن كله في التوحيد على هذا الاعتبار. وأدلة توحيد العبادة متنوعة؛ فتستدل لتوحيد الإلهية بآيات التوحيد، وتستدل لتوحيد العبادة بآيات النهي عن الشرك، وتستدل لتوحيد العبادة بنصرة الرسل؛ لأنهم أهل التوحيد، وتستدل لتوحيد العبادة بهزيمة، وإغراق، وهلاك أعداء الرسل الذين هم المشركون، وتستدل لتوحيد العبادة بأن آيات الجنة إنما هي للمتقين، والمتقون أول درجاتهم التوحيد. فأعظم التقوى أن تتقي الله جل وعلا بتوحيده، وبعبادته وحده لا شريك له.

إذًا، فما في القرآن من جميع أنواع الأدلة، فهي كلها في التوحيد. وتفاصيل الشرائع والأحكام: أحكام الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، والجهاد، كلها من حقوق التوحيد وما يترتب عليه.

الأصل الخامس: أن الاستدلال بأدلة التوحيد يكون بأحد ثلاثة أنواع من الدلالات: إما أن يكون **بالمطابقة**، وإما أن يكون **بالتضمن**، وإما أن يكون **بالالتزام**. فدلالة اللفظ أو دلالة الجملة على المراد إما أن تكون بالمطابقة، يعني: هو المعنى الأول الذي يطابقها وتفهمه من أولها، مثل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**﴾ [البقرة: ٢١]، فالرب من هو؟ هو الخالق الرازق، يعني: هو الرب الذي خلق ورزق وأعطى ومنع، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل. فقوله: **اعبدوا ربكم** هذه بالمطابقة: توجيه العبادة إلى الله جل وعلا المتصف بالربوبية.

وهناك آيات التوحيد فيها **التضمن**، يعني: أنها متضمنة لتوحيد العبادة، وهو أن الله جل وعلا بيَّن لنا أسماءه الحسنى وصفاته العلى، فكل أسماء الله جل وعلا الحسنى نعلم أن الاسم دالٌّ على الذات بالاسمية، ودالٌّ على الصفات بما فيه من الصفات. فكل ما فيه من الدلالة

على الذات، والدلالة على الصفات، هي دلالة على توحيد العبادة بالتضمن؛ لأنه جل وعلا هو المستحق للعبادة، لأن الأسماء الحسنى والصفات العلى متضمنة أنه هو الله الواحد الأحد المستحق للعبادة.

والنوع الثالث: **الالتزام** أو اللزوم. ومعناه: أنه يلزم من هذا ذاك. وهي أدلة توحيد الربوبية؛ فإن الله جل وعلا بيَّن لنا في القرآن كثيرًا أن المشركين يقرون بأن الله هو الخالق الرازق، وأن الله هو المحيي المميت، وهو الذي يُجير ولا يُجار عليه، وهو الذي يعطي ويمنع. فهم يقرون بذلك ويعلمونه حق العلم. ولذلك قال الله جل وعلا: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ**﴾ [العنكبوت: ٦٥].

إذن، كل ما أقرَّ به أهل الشرك الكفار من توحيد الربوبية، سواء في عصر النبوة أو في أي عصر، فهو دليل يلزمهم بتوحيد العبادة. فإذا قال لك قائل: أنا مؤمن بالله، لكن مسألة التوحيد لا... أو قال: الربوبية في القرآن لم يكونوا صادقين فيها أهل الشرك، وإنما ذلك من قبيل المجاز؛ نقول: لم يكونوا صادقين؟! إذا كانوا غير صادقين، فلماذا كانوا إذا ركبوا في الفلك، واشتدت عليهم المصيبة، دعوا الله مخلصين له الدين؟! فهذا دليل على أن عندهم إيقانًا بذلك في حال الشدة، لكن في حال الرخاء يتخذون آلهة مع الله جل وعلا.

فإذًا، هذه ثلاث: المطابقة، والتضمن، والالتزام. وكلها يُستدل بها على التوحيد بالآيات. فعليك أن تنتبه للآيات التي فيها مطابقة، والآيات التي فيها تضمن، والآيات التي فيها التزام، وكلها تستدل بها بأنواع مختلفة من الاستدلال.

الأصل السادس: استخدام علوم اللغة العربية في الاستدلال بالتوحيد؛ مثل أن تعرف معنى **الإله**. فـ **إله** ليس هو **الرب**. الرب كلمة من التربية، ومن الربوبية، من الخلق، والإيجاد، والتربية، والمعاهدة، والتعاهد؛ أما **الإله** فهو المألوه، والإله **فِعال** بمعنى **مفعول**، من **أَلِهَ**، يعني: عَبَدَ، وذلَّ، وخضع. فإذًا، اللغة دلتنا على شيء مهم، وهو أن كلمة **رب** غير كلمة **إله**. وهذا أول فرق مهم. فإذًا، الآيات التي فيها الرب غير الآيات التي فيها الإله.

فإذا قال الله جل وعلا: ﴿**أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ**﴾ [النمل: ٦٠]، أو قال: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ [الصافات: ٣٥]، فليس المعنى هنا: لا رب إلا الله، وإنما السؤال عن المعبود، لا عن الخالق الرازق. فالتوحيد في **لا إله إلا الله** ليس المراد به نفي استحقاق العبادة عن غير الله.

وأيضًا، اللغة التي تستخدمها في أدلة توحيد العبادة، والمفردات، ثم علم المعاني من علوم البلاغة، تحتاج إليه في التوحيد، كما تحتاج إليه في التفسير. فلا يوجد مفسر يحسن التفسير إلا وهو يجيد علم المعاني. والتوحيد تحتاج فيه إلى علم المعاني، مثل قوله جل وعلا، التي ينكرها اليوم بعض من يحبذون الشرك وعبادة الأولياء: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ**﴾ [الزمر: ٣]. قال أهل المعاني: هذه فيها حصر وقصر إضافي، يعني: ما نعبدهم لشيء من الأشياء، ولا لعلة من العلل، إلا لأنهم صالحون من الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء، أو يقربون إلى الله زلفى.

إذن، ما معنى عبادتهم للأصنام؟ هنا يأتي الفرق بين **الصنم** و**الوثن**، وهذا مهم في مفردات توحيد العبادة. فالصنم: معبودٌ على هيئة صورةٍ ما، صُوِّر على صورة إنسان، أو على صورة شجر، أو على صورة كوكب، أو على صورة شيء ما، فهذا يسمى صنمًا. والتمثال: صورة لم تُعبد. وأما الصنم فهو صورة عُبدت. والثالث: الوثن. والوثن: كل شيء عُبد مع الله جل وعلا، واعتقدت فيه البركة، أو شيء من الألوهية. ولذلك القبر يسمى وثنًا، كما في الدعاء: **(اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد)** [أخرجه أحمد: ٧٣٥٨]. والصليب سماه النبي صلى الله عليه وسلم، لما رآه على صدر عدي بن حاتم، قال له: **(يا عدي، اطرح عنك هذا الوثن)** [أخرجه الترمذي: ٣٠٩٥]. فسمَّاه وثنًا، وهو على صورة شيء مقصود، وهكذا الأوثان.

إذًا، عندنا: صنم، ووثن، وتمثال. والتمثال لا يدخل في بحثنا، وإن كانت التماثيل في شريعتنا محرمة، وفي بعض الشرائع قبلنا مباحة. لكن الوثن والصنم مختلفان. وهم يقولون: إن الصنم والوثن تنزل فيهما روحانية المِلَك، فإذا جعلوا صنمًا على صورة مَلَك، قالوا: إنه عند السؤال

تنزل الروحانية على هذا الملك. وكذلك الوثن، يقولون: إنه ينزل فيه السبب الموصل إلى الله جل وعلا.

وهنا يذكر أهل التفسير، وحتى أهل الكلام منهم، أن الآيات التي في القرآن في التوحيد تشمل العقلاء وغير العقلاء، وهذه من الأدلة اللغوية، وهي أن كل دليل لتوحيد العبادة في القرآن فهو إما أن يكون للعقلاء وغير العقلاء جميعًا، وإما أن يكون لغير العقلاء، وإما أن يكون للعقلاء وحدهم. فإذا قال الله جل وعلا: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ**﴾ [الأعراف: ١٩٤]، فهذه في العقلاء.

وآخر نقطة في الاهتمام باللغة في الاستدلال: أن من أوجه الاستدلال اللغوي المشهورة **التقديم للتخصيص**، كقوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿**فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ**﴾ [الجاثية: ٣٦]. فقوله: **فلله الحمد**، وقوله: **إياك نعبد**، هذا قُدِّم فيه ما حقه التأخير للتخصيص، أو للاهتمام، على ما يذكره أهل المعاني. فتقديم المفعول في قوله: **إياك** هو للتخصيص.

فهذا شيء من شذرات متنوعة في هذا الموضوع المهم، وسيكون له -إن شاء الله تعالى- كتابةٌ وتأصيلٌ وبيانٌ، حتى يكون علمًا مدونًا يشرح، مثلما تشرح العلوم الأخرى: أصول الفقه، وأصول الحديث، وأصول التفسير.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. اللهم اغفر لنا جميعًا. وصلى الله وسلم على نبينا محمد.